عصر العولمة والانفتاح الحضاري للإسلام

بلقاسم الغالي*

مقدمة

يعيش العالم الإسلامي في ظل العولمة بمظاهرها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، ويتأثر بتداعياتها المتنوعة. ويمثل هذا الانفتاح الحضاري الذي يزخر به عصرنا أهم التحديات التي يواجهها العالم الإسلامي من حيث تأثيره في الهوية الثقافية وتغييره للقيم والأفكار وأنماط السلوك ومناهج التفكير.

ولقد أصبح الإفلات من زحف هذه التحديات أمراً غير ممكن فلم يبق غير التفاعل الإيجابي مع هذه التطورات، وذلك بامتلاك هذه الوسائل المتطورة وتطويعها خدمة لديننا وترسيخاً لثقافتنا وقطعاً لحملات التشويه المسلطة على الإسلام.

فكيف يتم هذا التطويع؟ وما هي عوامل القوة التي يزخر بها هذا الدين حتى يستطيع أن ينافح عن قيمه ويصمد أمام هذا المد الجارف الذي يكاد يأتي على الأخضر واليابس؟ وما عوامل الانخرام والضعف في هذه الحضارة المادية التي تريد بسط هيمنتها على عالمنا؟ كل هذه الأسئلة تولدت عنها القضية التي يسعى هذا

* أستاذ العقيدة الإسلامية في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة.

البحث لمناقشتها ومعالجتها من خلال المحاور الآتية: بيان مرتكزات الانفتاح الحضاري وتداعياته، وأدلة انسجام الدعوة الإسلامية مع الانفتاح الحضاري، وموقف المجتمع من هذا الانفتاح بين الرفض والقبول والتوقف، يمكن لهذا المجتمع الاستفادة من إيجابيات عصر العولمة ويتحاشى لسلبياته وهو بدوره تتقاذفه تيارات منها ما يدعو إلى الهجرة والانقطاع ومنها ما يتعامل مع ظواهر الانفتاح بحيطة وحذر، ومنها يستسلم كلية لمعطيات العولمة وتوجهاتها؟ تلك هي الأسئلة والمحاور التي سنكرس لها هذا البحث.

العولمة: الظاهرة ومداها ومظاهرها

العولمة موضوع ملأ الدنيا وشغل الناس وأثار نقاشاً واسعاً في العالم وفي البلاد الإسلامية على حدّ سواء. كتبتْ حوله الصحف، وتناولته المؤلفات[1] وصدرت له المجلات الخاصة وعقدت المؤتمرات والندوات على المستوى المحلي والإقليمي والدولي من قبل السياسيين والاقتصاديين والإعلاميين والاجتماعيين والتربويين.

ولقد اكتسحت إيديولوجيا العولمة فضاءات العالم بقوة متسارعة إلى حدّ أن بعضهم اعتقد أن الزمن قد توقف وأن التاريخ قد انتهى وأن ليس ثمة اتجاه في المستقبل سوى التحررية الجديدة التي لا تعرف حدوداً. ذلك لأن انهيار الشيوعية وتهاوي الأنظمة الاشتراكية في نهاية الثمانينات بيّن في غير لبس إفلاس نمطها الاقتصادي والسياسي ونظامها الاجتماعي. وبرز فضاء موحد لا تقف فيه حدود الدول عائقاً أمام انتقال السلع والخدمات والأفكار والمعلومات وكذلك أدوات الإنتاج، وتحدث

---

[1] انظر على سبيل المثال: هانس بيتر، وهارلد شارمان، **فخ العولمة** ترجمة عدنان عباس علي، **سلسلة عالم المعرفة** (الكويت: طبعة وإصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1999) عدد 238، وانظر حنفي، حسن والعظم، صادق جلال، **ما هي العولمة؟** (دمشق: دار الفكر وبيروت: ودار الفكر المعاصر، ط2، 2000م).

بعضهم عن عصر نهاية التاريخ،[1]... وبدء زمن جديد يقوم على قيم الحرية والتنافس في مجتمعات العالم كافة، الأمر الذي سيفضي في اعتقادهم إلى توافق شامل لا في الاقتصاد فقط، بل في الثقافة والحضارة.

تعريف العولمة

اختلفت مواقف المفكرين والكتاب العرب من العولمة اختلافاً كبيراً بين مؤيد ومعارض ومحايد. وسأعرض نماذج من هذه التعريفات على سبيل المثال لا الحصر. وسأستهل تلك التعريفات بتحديد للعولمة.

المعنى اللغوي للعولمة: لقد جاء لفظ "العولمة" توليداً من كلمة "عالَم" وقد افترض لها الدكتور عبد الصبور شاهين فعلاً هو عولم يعولم عولمة، بطريقة التوليد القياسي، ومصدرها الصناعي "العولمية"،[2] فيقال إن الحياة قد تعولمت بعد أن تعولم الاقتصاد، وإن السيولة المالية قد تعولمت، وكذا المواصلات والمعلومات.

وأما التعريف الاصطلاحي من قبل المؤيدين: فقد عرّفها الدكتور صادق جلال العظم بأنها تعني "وصول نمط الإنتاج الرأسمالي إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج".[3] وهذا يعني في رأيه "رسملة" العالم على مستوى العمق بعد أن رسملته على مستوى السطح، أي نقل دائرة الإنتاج الرأسمالي إلى الأطراف بعدما كانت محصورة كلياً في مجتمعات المركز ودول[4] وذهب السيد ياسين إلى أن جوهر العولمة يتمثل في سهولة حركة الناس

---

1 فوكوياما، فرانسيس، **نهاية التاريخ وخاتم البشر**، ترجمة حسين أحمد أمين (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر 1993).

2 شاهين، عبد الصبور، **نحن والعولمة من يربي الآخر** (الرياض: طبعة وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية، روناء للإعلام المتخصص، 2000) ص 37.

3 حنفي والعظم، **ما هي العولمة**، ص 67.

4 المرجع السابق.

والمعلومات والسلع بين الدول على النظام الكوني. وإن لها تجليات متعددة اقتصادية وثقافية وسياسية. بل إن ظاهرة العولمة تحتاج إلى صياغة نموذج متعدد الأبعاد حتى نصل إلى جوهرها الحقيقي. وهذا النموذج من وجهة النظر المعرفية لا بد له أن يربط ربطاً عضوياً وثيقاً بين تعريفات العولمة المختلفة والمسلمات التي تقوم عليها، والأطروحات التي تتضمنها مجالات السياسات تي تصاغ بناء على هذه المسلمات، والصور المقاومة لها، وذلك من خلال منظور معرفي متكامل.[1]

وعرفها الدكتور إسماعيل صبري عبد الله بأنها ظاهرة تتداخل فيها عوامل الاقتصاد والثقافة والاجتماع والسلوك دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة أو الانتماء إلى وطن محدد أو لدولة معينة، ودون حاجة لإجراءات حكومية مع الاعتماد على الشركات متعددة الجنسية.[2]

أما المعارضون للعولمة فيرون أن العولمة نظرية متوحشة تقوم على أساس قانون الغاب. والأقوى هو الذي يستطيع أن يفرض سياسته وهويته ونظامه الاقتصادي الذي سيبتلع سائر الاقتصاديات الضعيفة. ومن هنا ستسقط العولمة هيبة الدولة وتقضي على مفهوم الأمة، كما أن الدولة ستتخلى عن مهامها، ولن تتمكن من حماية مواطنيها من الاستغلال والبطالة والفقر، لأن قوى السوق هي التي ستفصل كل شيء. وهذا ما يعبّر عنه الدكتور جلال أمين بقوله: منذ بزوغ الحضارة الحديثة تحوّل الوطن العربي إلى متلق سلبي لآثار العولمة.[3]

---

1 ياسين، السيد، **العالمية والعولمة** (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000) ص 36.

2 صبري عبد الله، إسماعيل: "الكوكبة الرأسمالية العالمية في مرحلة ما بعد الإمبريالية"، **مجلة الطريق** بيروت، تموز (يوليو) آب (أغسطس) 1997، عدد 4، ص 45-69، كذلك مقاله الآخر: "الكوكبة أساس الظاهرة الاقتصادي الاجتماعي"، **مجلة النهج** دمشق، ربيع 1998، العدد 14، ص 7-29.

3 أمين، جلال، **العولمة والتنمية العربية من حملة نابليون إلى جولة الأوروغواي (1798-1998)** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1999) ص8.

وممن أسهم بتوجه معارض للعولمة الدكتور محمد عابد الجابري فقد دأب على نشر عبارات من النوع التالي: العولمة تشمل: "مجال المال والتسويق والمبادلات والاتصالات..."، "العولمة من إفرازات الثورة المعلوماتية وما يرافقها من تطور في مجال الاتصال والإعلام" العولمة هي "ما بعد الاستعمار" العولمة هي "توحيد الاستهلاك وخلق عادات استهلاكية على نطاق عالمي" . والعولمة هي "تزايد التشابك والترابط بين الدول والمجتمعات والتفاعل بينها وعلى المستويات كلها مما يسمى علاقات دولية، العولمة هي "إمبراطورية الرأسمال النقدي المستقل عن الرأسمال الصناعي والبضاعي".[1]

وعموماً فإن المعارضين للعولمة يعتبرونها مرحلة جديدة في النظام الرأسمالي العالمي بدأت مع نهاية الحرب العالمية الثانية حيث اتجهت الدول الكبرى إلى تبني أسلوب جديد غير أسلوب الحروب العسكرية، وهو ضمان مصالحها والمحافظة عليها عن طريق نشر النظام الرأسمالي في العالم. ومن ثم يمكن حل المشكلات الرأسمالية على حساب الدول الأخرى، واستغلال اقتصادها من خلال تعميم مفاهيم الليبرالية، وحرية السوق، وقانون العرض والطلب بما يؤدي في النهاية إلى هيمنتها الكاملة على عمليات الإنتاج ومحاولة حلّ أزماتها الداخلية على حساب الآخرين من خلال إدخال العالم كله في النظام الرأسمالي الحر.

وهناك من يعتبر العولمة هي الأمركة وذلك بفرض النظام الأمريكي الاجتماعي والسياسي والأخلاقي والسلوكي على العالم.

وهكذا شأن العولمة في نظر المعجبين رخاء وديموقراطية ومساواة وحرية وعدالة، وهي في نظر المعارضين وحش كاسر بسبعة رؤوس يبتلع الأخضر واليابس ويأتي على الزرع والضرع ويخضع الفقراء للأغنياء أفراداً ودولا.

---

1 الجابري، محمد عابد، **العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات** (بيروت: طبعة مركز دراسات الوحدة العربية، 1998) ص 297-308.

وقد عرفها محمود الأطرش تعريفاً غير بعيد عن التعريف السابق يقول فيه بأنها تمثل: اندماج أسواق العالم في حقول التجارة العالمية والاستثمارات المباشرة وانتقال الأموال والقوى العاملة والثقافات والتقانة ضمن إطار من رأسمالية حرية الأسواق، وخضوع العالم لقوى السوق العالمية، بما يؤدي إلى اختراق الحدود والانحسار الكبير في سيادة الدولة لفائدة الشركات الرأسمالية الضخمة متعددة الجنسيات".[1]

ويظهر أن العثور على تعريف دقيق للعولمة أمر في غاية الصعوبة نظراً لتعدد جوانبها من جهة ونظراً لاتجاهات الباحثين الإيديولوجية التي ينطلقون منها من جهة أخرى.

يختلف الباحثون في شؤون العولمة حول نشأتها اختلافاً كبيراً، فبعضهم يرى أن الاتجاه نحو دمج العالم في منظومة واحدة قديم قدم الحركات والتوسعات الإمبراطورية، وأن أقرب جذورها إلينا المرحلة الاستعمارية والإمبريالية.[2] وبعضهم يرى أنها بدأت في الظهور مع مشروع مارشال الأمريكي الذي أقيم بهدف إعادة إعمار أوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية والذي استهدف فضلاً عن إعادة إعمار أوروبا إعادة تنظيم العلاقات النقدية وأسعار الصرف ووسائل الدفع الدولية.[3]

ومن الباحثين من يربط ظهورها بحركة الكشوف الجغرافية التي كان من نتائجها الرئيسة والحاسمة في تاريخ الإنسانية اكتشاف أمريكا واستيطانها من قبل الشعوب الأوروبية وتحولها إلى المركز الأهم للإنتاج الصناعي والتقني، كما كان من نتائجه تعميم أنماط العلاقات الرأسمالية وتشكيل العالم الذي نعرفه اليوم.[4]

---

1 الأطرش، محمود، "العرب والعولمة: ما العمل؟"، **مجلة المستقبل العربي**، تصدر عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، مارس 1998، العدد 229، ص 1001.

2 غليون، برهان وأمين، سمير، **ثقافة العولمة وعولمة الثقافة؟** (دمشق/بيروت: دار الفكر، ودار الفكر المعاصر، ط2، 2000م) ص12.

3 أبو زعرور، محمد سعيد بن سهو، **العولمة** (عمان: دار البيارق الأردن، ط1، 1998)، ص16.

4 غليون وأمين، **ثقافة العولمة**، ص13.

وقد برز مصطلح العولمة للدلالة على مفهوم معين بعد حرب الخليج الثانية التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفياتي، ونهاية الحرب الباردة، وسقوط سور برلين، وبروز أمريكا قطباً واحداً يحاول أن ينفرد بتسيير العالم طبقاً لمصالحه الذاتية. أي في السنوات العشر الأخيرة لكن بذورها الأولى بدأت في منتصف الستينات ثم اتضحت معالمها في السبعينات وتسارعت وتائرها في الثمانينات.[1]

مظاهر العولمة وانعكاساتها

مجالات العولمة شاملة لمختلف جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية. فالعولمة ظاهرة اقتصادية بالأساس، وهي تعني أن يكون الاقتصاد عالمياً أو متعولماً،[2] كما تعني أساساً توحد المنظومة الاقتصادية الدولية بتمدد نظام السوق الرأسمالية وانتشاره من المركز إلى باقي الأطراف، ومن ثم إنشاء اقتصاد عالمي موحد يتجاوز الحدود القطرية والحواجز القومية.

ونظام العولمة لم يولد فجأة، بل إن أسسه الاقتصادية والمادية ومقوماته السياسية وهيمنته الإيديولوجية قد برزت وتحددت قبل نهاية الحرب العالمية الثانية، إلاّ أن وجود الاتحاد السوفياتي في مواجهة التحالف الغربي كان يحدّ من نفوذ هذا النظام ويكبحه. وما أن انهار الاتحاد السوفياتي حتى انتقل العالم إلى مرحلة القطبية الاقتصادية أحادية الجانب، وتفردت الولايات المتحدة الأمريكية بمقاليد السلطة السياسية العالمية بعد أن أرهبت العالم بقوتها العسكرية ذات التقنيات العالية.

والعولمة في مظهرها الأساسي تكتل اقتصادي للقوى العظمى للاستئثار بثروات العالم وموارده الأولية وأسواقه على حساب الشعوب الفقيرة، واحتواء المركز

---

1 السيد ياسين، "مقال في مفهوم العولمة"، مجلة **المستقبل العربي** بتاريخ 2، 1998، العدد 228، ص4.

2 حسنين، صبري أحمد، "العولمة الفرص والتحديات" بحث في ندوة **نظمتها إدارة البحوث والدراسات بديوان ولي العهد بأبوظبي**، أبوظبي 20-21 أكتوبر 1996)، ص51.

للأطراف التي حاولت الفكاك منه في الخمسينيات والستينيات إبّان حركة التحرر الوطني، ثم تعثرت في بناء الدولة الوطنية ثم عمل المركز على وراثتها من جديد تحت أحد أشكال الهيمنة، وهي العولمة، وكأن تلك الدول لم تخرج من الاستعمار إلا لكي تعود إليه، نادمة على مناهضته ومقاومته والاستقلال عنه، وهذا المسار قادته الشركات المتعددة الجنسيات قبل تتولى أمره إلى الدول الصناعية الثماني. والعولمة إحدى مراحل النمو الرأسمالي في الغرب في هيئة الشركات المتعددة الجنسيات التي تتجاوز حدود الدول القومية التي نشأت مع الرأسمالية ولعبت دوراً رئيسياً في نموها وانتشارها وخوض الحرب في سبيلها، وجاءت مثل الرخاء والرفاهية والاستهلاك تشريعاً لإيديولوجية السوق وقوانين العرض والطلب طبقاً لقوانين "دعه يعمل، دعه يمر".[1]

لقد تميزت العولمة الاقتصادية بالاعتماد على تكنولوجيا المعلومات تسويقاً وضبطاً محكماً لمختلف حركات السوق. كما اجتاحت العالم ثورة التكتلات والمؤسسات الاقتصادية العملاقة، وهي في جوهرها نتاج للثورة التكنولوجية ونمو القوى الإنتاجية التي تخطت إمكانات البلد الواحد على نحو استلزم تدويل الحياة الاقتصادية وتخطى حدود الدول القومية من أجل تنمية قوى الإنتاج وظهور أشكال عديدة من الاعتماد المتبادل والتعاون والتكامل والاندماج.[2]

وتعتمد العولمة الاقتصادية على تحرير تجارة السلع الزراعية والصناعية وتحرير الخدمات المالية مما يفتح منافسة قوية الخاسر فيها الدول الضعيفة التي لا تملك قدرة

---

1 حنفي والعظم، **ما هي العولمة**، ص24.

2 "الأدوار المستجدة للعمل الاجتماعي والدولة في ظل العولمة"، **الملتقى الاجتماعي السادس لجمعيات الاجتماعين في دول مجلس التعاون**، المنعقدة بالشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 7-8 فبراير 2001، ص 400.

على المنافسة للفارق الشاسع بين الشركات المتعددة الجنسيات ودول العالم النامي من حيث الإنتاج والتسويق والاعتماد العلمي لمختلف المراحل الاقتصادية.

ثقافة العولمة وعولمة الثقافة

لمحة تاريخية

العولمة ظاهرة اقتصادية آلياتها تقنية ومعلوماتية وسياسية، ولكن الأيديولوجيا التي تروجها بالأساس ثقافية فيها توجيه للخيال وتنميط للذوق وقولبة للإنسان، وربط الفرد بالفضاء الإعلامي بدلاً من مجتمعه ووطنه. وهي تروج لقيم التسلية والإثارة والإمتاع من خلال فكر منفتح الأبواب ومشرع النوافذ مشرعة بكل حرية وقابلة لكل وافد مهما كان غريبا.

هذه الإيديولوجيات طرحت نفسها بقوة إثر الحروب الطاحنة فبدأ أقطاب العولمة يخططون لفكر العولمة ويرسمون له خلفية ثقافية تقوده وتحميه وتروّج له.

وتهدف العولمة إلى خلق ثقافة عالمية كونية تتقارب فيها الميول والأفكار ليسود التفاهم بين بني البشر وليسود السلام العالمي. تلك هي الأهداف المعلنة والتي يحاول مفكرو العالم الرأسمالي تمريرها من خلال المنظمات الأممية بدعوى السلم والتفاهم والتعاون وقبول الآخر بعيداً عن الصراع.

ولقد ازداد التفكير في النظام العالمي الجديد إثر الأحداث الكبرى وذلك إثر الحرب العالمية الثانية التي هزت الإنسانية وما خلفته من دمار رهيب في أوروبا. وقد تنبّه العالم الغربي خاصة الولايات المتحدة إلى خطر توقف التطور الإنتاجي في أوروبا وانعكاسات ذلك على مناعة الأيديولوجية الرأسمالية، فقام مشروع مارشال ببعث النهضة الأوروبية وبربط محكم بينها وبين دول المحيط الأطلنطي.

تلك هي بدايات التفكير في أيديولوجيا العولمة لأن معظم أجزاء العالم ما تزال

يحيط بها التردد نحو العولمة الثقافية، فإذا كان العالم يمكن أن يتوحد تجاريًّا وماليًّا فإنه من الصعب أن يتحد ثقافيا.[1] لأن الشعوب تميل إلى المحافظة على خصوصياتها الثقافية. ولكن أقطاب العولمة لا يقفون عند السيطرة الاقتصادية لتكون هذه الظاهرة في مأمن لذلك ينبغي أن يسندها الفكر وتدعمها الثقافة.

مظاهر العولمة الثقافية

وهكذا فإن ظاهرة العولمة ليست سيطرة اقتصادية وتكنولوجية فحسب، بل هي سيطرة علمية وثقافية وإيديولوجية، وهي تعني ذلك التداخل الواضح بين الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والسلوك الدولي دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة أو الانتماء إلى وطن محدد أو لدولة معينة ودون الحاجة إلى إجراءات حكومية.

إنها محاولة للحد من مظاهر الحضارات الإنسانية المغايرة وإزالة الخصوصيات الثقافية للدول، وقد تمسك مفكرو الغرب وساسته ورجال الاقتصاد فيه بتنفيذ مخطط للعولمة تخدم أهدافها واستراتيجياتهم. وقد وجدوا الظروف مهيأة لإدخال العالم وتراثه وحضارته تحت سيطرة فكر واحد وحضارة واحدة، وقد ساعدهم على ذلك هشاشة البنية الثقافية الوطنية وعدم تغلغل الإيمان الصحيح في نفوس مسلمي اليوم بالنسبة للعالم الإسلامي.

إن الثقافة الاستهلاكية التي تبثها عشرات الأقمار الصناعية على مئات القنوات التلفزيونية قد باتت تعمم الثقافة الفردية القائمة على الفلسفة البراجماتية في تتويج لا مثيل له لثقافة الاستهلاك، وذلك هو الخطاب الأمريكي السائد الذي يبرز من خلال مقولات مهندسي السياسة الأمريكية مثل بريجنسكي مستشار الأمن القومي الأمريكي القائل في منتصف السبعينات بضرورة تعميم النمط الثقافي الأمريكي من خلال حسن

---

[1] الجنابي، الحبيب، "ظاهرة العولمة الواقع والآفاق"، **مجلة عالم الفكر**، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، أكتوبر ديسمبر 1999، مجلد 38، العدد 2، ص75.

استغلال جهاز التلفزيون تحديدًا بهدف تعميم "الكوبوي الأمريكي" والمدرسة الأمريكية في الثقافة التي تقدس رغبات الفرد ونزعته الاستهلاكية.

وقد استخدمت مقولات شائعة في سبيل الترويج لهذا النوع من الثقافة منها: "الحياة مجموعة لحظات آنية من المتعة" وإن "الإنسان لا يعيش مرتين".[1]

إن العولمة الثقافية مفهوم شمولي يشمل اللباس والنماذج المعتمد والتسلية والترفيه وأسلوب الطعام، فيمكنك أن تطلب وجبة "بيج ماك" في أي بلد من العالم تحل فيه في جو ثقافي مصمم خصيصًا لهذا الغرض. كما تشمل العولمة الرسوم والذوق والتفكير وصياغة الإنسان من خلال القوة التي تسود العالم. إن نظام العولمة سيفرض على العالم الإسلامي خاصة مذهبيته وحضارته وعاداته وتقاليده بطريقة قسرية تعتمد الإعلام والتربية والاقتصاد والقوة السياسية والعسكرية طريقًا لتحقيق مآربها. وهو يحاول تحويل الحضارات والمجتمعات إلى النمط الغربي لضمان سهولة السيطرة على هذه المجتمعات وامتصاص مواردها الطبيعية اعتمادًا على القوة العسكرية والإعلامية والسياسية الاستراتيجية ذات الأبعاد المتعددة. إن ثقافة الاستهلاك ترسم من قبل الكليات والمجامع العلمية حيث أقام أصحاب الثروات والقائمون على الإنتاج تحالفات مع الجامعات والكليات الرائدة التي بدأت بتعليم التجارة وإدارة الأعمال في كليات جديدة استحدثت لهذا الغرض. ولقد اعتمدت الثقافة الجديدة برمتها على خلق الطلب على السلع من خلال تحفيز رغبة الناس واستثارتها، بل من خلال إيجاد رغبات جديدة لديهم، حيث تفضي كل رغبة إلى أخرى بصورة توالدية مستمرة.[2]

وكل الأجهزة العلمية والإعلامية تجعل من السلعة صنما تروج للاستهلاك،

---

1 ظاهر، مسعود، "الثقافة العربية في مواجهة المتغيرات الدولية الراهنة"، **مجلة الفكر العربي المعاصر**، 1993، ص56-57.

2 زلوم، عبد الحي، "نذر العولمة عن كتاب باللغة الإنجليزية"، **سلسلة مقالات بجريدة الخليج**، الشارقة الإمارات العربية المتحدة، السبت 25 ذي القعدة 1419-13 مارس 1999، العدد 7237.

تزينه، ترفعه لمرتبة العبادة، وتعمل على تفريغ الروح من كل حس جمالي والذهن من كل ميل نقدي.[1] يقول أحد الكتاب الأمريكيين: "إن النزعة الاستهلاكية هي المحرك الرئيس الذي يجعل الجميع يحتسون القهوة "الكابتشينو" ويرشفون المياه المعدنية "بيرييه" بينما يؤثثون منازلهم من إنتاج مصانع "إيكيا" السويدية، ويتذوقون طعام السوش الياباني، ويرتدون ملابس شركة الألوان المتحدة "بنيتون" ويتذوقون الاستماع إلى موسيقي الروك أندرول الأمريكية والإنجليزية، وهم يقودون سيارات هيونداي الكورية في طريقهم إلى مطاعم ماكدونالدز."[2]

لقد تمتّ صياغة الثقافة الاستهلاكية عبر ثورة الاتصالات وثورة الإنسان الآلي وعصر الكمبيوتر والاكتشافات العلمية المذهلة في جميع حقول المعرفة ولكنها ثقافة شهوانية تملأ الفراغ وتقدس البهرج المادي الزائف ولا تهتم بقيم خالدة يجسمها الفن أو يقدسها الدين.

التحولات الاجتماعية في عصر العولمة

شهدت السنوات الأخيرة تغير ملامح الحياة الاجتماعية التي اتسمت بديناميكية لم يشهد لها العالم مثيلاً من قبل، وبدأت المفاهيم والقيم التي تسود العالم تتغير وتحدث أثرًا بالغًا على في الحياة الإنسانية. ذلك لأن عولمة الحياة الإنسانية المعاصرة تشكل في الواقع إحدى السمات الكبرى لعصرنا الحاضر، وتداعيات العولمة لا تبرز في الحياة الاجتماعية فحسب، ولكنها تنعكس على الجوانب السياسية والاقتصادية. ولقد بدأت مظاهر العولمة تنعكس تأثيراتها على حياة المجتمعات والأفراد في البلدان النامية والصناعية على السواء. بحيث أصبحت البشرية تحتاج إلى "علم اجتماع العولمة"، لكي

---

1 **الثقافة والاستهلاك**، نشر دائرة الثقافة والإعلام، (حكومة الشارقة: ط1، 1994) ص160.

2 المرجع السابق، ص160.

يدرس أبعاد هذه الظاهرة والناتجة عنها، مثل تدمير الصناعات المحلية، وإذابة الهوية، وتأثيرها على في سوق العمل وما خلفته من بطالة نتيجة خصخصة. المؤسسات العامة وشيوع الفقر. ومن جهة أخرى هناك نمو متصاعد لبلدان نامية لها إسهامات عالمية ونهضة تجديدية مرتبطة بخصائص الثقافة العالمية أو بتنشيط الحياة الثقافية المحلية بالإضافة إلى التأثيرات المتسارعة لتطور العلوم الإنسانية ووسائل الاتصال و ما وصلت إليه من إنجازات علمية، كل هذا أغنى الرصيد العقلي للإنسانية جمعاء وساعد على تكوين نمط جديد من التفكير، وظهور أساليب وطرائق متجددة مبدعة في دراسة الكون ومشكلاته العامة من زاوية إنسانية شمولية بحيث يعاد تشكيل اللوحة العالمية من منظور وحدة التاريخ العالمي والتطور الثقافي للإنسانية بأكملها.

إن التأثيرات المتسارعة لمنجزات الثورة العلمية – التقنية وعمليات الهجرة إلى قارات ومجتمعات أخرى وتطور وسائل المعلومات والاتصال والسياحة العامة، كل هذه المعطيات والمظاهر غيرت وجه العالم وغيرت رؤية الناس وإدراكهم لهذا العالم.

وفي هذا العصر حيث تتعاظم التفاعلات الاقتصادية والاجتماعية والمعلوماتية بين الشعوب، فإن وحدة الإنسانية في صورها المختلفة وأشكالها المتعددة وبكل خبراتها الثقافية والتاريخية لن تتحقق عن طريق العولمة، بل يتطلب الأمر حلولاً واقعية تتميز بالتعددية العقائدية والتنوع الثقافي والمحافظة على الخصوصيات تجنبًا للصراع الحضاري وخدمة للتقارب والتفاهم. وفي مثل هذا الإطار لابدّ أن تستيقظ منظومة للقيم الدينية والأخلاقية لكي تحمي نفسها من هجوم الوافد ولكي تدعم التوافق الإنساني بديلاً عن الحروب والصراع بجميع أشكاله وألوانه.

نظرة العولمة إلى الإنسان

من أهم ما تتميز به المذاهب والفلسفات النظرة إلى الإنسان، فالرؤية إلى الإنسان تشكل جوهر المذهب وصميمه. ونظرة العولمة إلى الإنسان نظرة مادية بحت، يُنظر إلى

الإنسان فيها بوصفه عنصرًا من عناصر الإنتاج من جهة، ومستهلكاً نهماً من جهة أخرى. إنه مجرد كائن حي يعمل كالآلة ويستهلك بتسليط عامل الإيحاء وتزييف الوعي وإهمال المتطلبات الثقافية والقيم الروحية الأصلية فيه. وهناك بالطبع نزعة في الإنسان نابعة من غريزة التملك تتهافت على الاستهلاك وتزيد رغبة الشراء، ولذلك يعمل المروجون للعولمة على طغيان هذا الجانب في المجتمعات الإنسانية، فترى الناس يقبلون على شراء البضائع والمنتجات المختلفة مع انعدام الحاجة إليها، مدفوعين بتشجيعات متنوعة ومركبات سلعية محفزة ومرغبات في الاستهلاك دافعة.

والإنسان عندما يجد نفسه في مناخ استهلاكي يندفع بروح القطيع إلى الاستهلاك، وإذا لم يتوفر له ذلك جنح إلى الجريمة، وكذلك العكس فعندما تشيع قيم الإعراض عن الحياة الاستهلاكية فإن النفس الإنسانية تزهد في كثير من الأشياء ولا تتكالب على ما يعترض سبيلها من مباهج.

وفي عصر العولمة يطغى الجانب المادي على سائر أبعاد الحياة، فالإنسان يقاس بما عنده من مال وماله من عقارات وأرصدة، ويقل العمل التطوعي فكل نشاط يبذله الإنسان يطلب عليه الأجر، والإنسان المعاصر له مبرراته في اتجاهاته المادية لأن الحياة الاقتصادية تضغط ضغطًا شديدًا، فتجعل منه متهافتا على المادة.

الطبقة المتوسطة والعولمة

تشير معظم التحليلات إلى الأهمية الاجتماعية والسياسية لما يسمى بالطبقة المتوسطة في المجتمع (المكونة من كبار ضباط الجيش، وقيادات الشرطة، وأساتذة الجامعات، والصحفيين، الأطباء والمحامين، والاقتصاديين، والفنيين السامين، والموظفين الذين وصلوا إلى المراكز الوسطى،[1] والحرفيين وأصحاب المؤسسات الصغرى ذات الدخل المحترم).

---

[1] عبد الفضيل، محمود، **التشكيلات الاجتماعية والتكوينات الطبقية في الوطن العربي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1988) ص122.

وتعتبر هذه الطبقة الاجتماعية قلب المجتمع بنبضه تعرف مدى صحته أو علته. والمحافظة عليها وتقويتها تحول دون تجزئة المجتمع إلى أغنياء فاحشين وفقراء مدقعين، ثم إن هذه الطبقة تتميز بأهمية كبيرة كقطاع إنتاجي واستهلاكي في الآن نفسه.

وهذه الطبقة الوسطى في المجتمع ستتقلص في الحاضر وسيعسر إفرازها في المستقبل، كما تشير إلى ذلك دراسات عديدة، وسبب ذلك إفلاس المؤسسات الاقتصادية الصغرى وطغيانُ المؤسسات العملاقة التي أنشأتها الشركات المتعددة الجنسيات وخصخصةُ القطاع العام والاستغناء عن كثير من الكوادر بدعوى ترشيد التصرف. وهذه الحالة ستربك المؤسسات الوطنية، وستقع الفئات الاجتماعية في طاحونة غلاء الأسعار، مما يجعل الأجور غير ذات قيمة، فتضعف القدرة الشرائية وينحط عيش مختلف الشرائح الاجتماعية وستؤدي هذه العوامل وغيرها بالطبقة المتوسطة إلى الانهيار إلى مستوى الطبقات الكادحة التي تلهث وراء "لقمة العيش" من الصباح إلى المساء، وستهنأ طبقات الأغنياء المتخمين بما توافر لها من امتيازات، فلا تسعى إلى التغيير بل تسعى إلى إبقاء ما كان على ما كان حفاظًا على مصالحها ومواقعها.

المرأة والعولمة

تعمل الشركات المتعددة الجنسيات في زمن العولمة على تشغيل المرأة في بلدان العالم الثالث لأنها رخيصة الأجر ومطيعة وغير مكلفة في التأمين الاجتماعي.[1] وكثير من المؤسسات الصناعية في الدول الصناعية الكبرى أنشأت لصناعتها فروعًا في المناطق الريفية والقروية في بلدان العالم الثالث وشغلت أعدادًا كبيرة من الفتيات بأجور زهيدة. ورغم ما وفرته هذه الشركات من تحسن اقتصادي في تلك المناطق المحرومة، فإن ما تجنيه هذه الشركات من أرباح طائلة لا يكاد ذلك التحسن يساوي معه شيئًا.

---

[1] المعطي، عبد الباسط وآخرون، **العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي** (ندوة مهداة إلى سمير أمين) (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1999) ص245.

ومن مظاهر العولمة زيادة تشغيل المرأة في الفنادق والمطاعم التي تقدم وجبات سريعة، وفي خدمة المؤتمرات والبنوك والإعلام، وجميعها أعمال ذات أجور منخفضة وبدون ضمانات اجتماعية في الغالب. وظاهرة "تأنيث العمل" بارزة ليس في العالم الثالث وحده بل يشمل الأمر العالم المتقدم خاصة في الصناعات التجميعية، وفي الإلكترونيات، وفي تصنيع الحلي وتطريز الملابس الفاخرة، وأعمال السكرتارية وغيرها.[1]

وتمثل المرأة الثرية عنصرًا بارزًا في ظاهرة الاستهلاك والاهتمام البالغ بأنواع الترفيه السطحية، وامتلاك آخر صيحة من المقتنيات. وانتشار الدعارة بين النساء وعلى الأخص صغار السن أمر ملاحظ في عصر العولمة، وهذه الدعارة تتخذ أشكالاً متعددة سافرة ومستترة وتدخل ضمن تجارة الرقيق الأبيض ذلك التنظيم العالمي الذي يتداخل مع عولمة الجريمة والمخدرات والسياحة.[2]

ولا شك أن هذه التحولات ذات آثار بعيدة في حياة الأسرة وتماسكها واستقرارها، الأمر الذي يتطلب وعيا عميقا لها وقدرة على مواجهتها بالحلول الناجعة المناسبة.

عولمة السيادة

عولمة السيادة[3] أو عولمة السياسة[4] أو تضاؤل سلطة الدولة أو عولمة الدولة أو العولمة السياسية، كلها عناوين تزخر بها المقالات العلمية للدلالة على التفلس المتزايد في سيادة الدولة في عصر العولمة.

ولقد كان هذا المبدأ محترماً من جميع الدول فقد ورد مبدأ السيادة في الفقرة الأولى من المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة. وأعلنت جميع الدول الأعضاء تمسكها به

---

1 المرجع نفسه، ص9 وما بعدها.

2 المرجع نفسه، ص254.

3 البزاز، حسن، **عولمة السيادة حال الأمة العربية** (بيروت: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،ط1، 2002).

4 كاظم، نجاح، **العرب وعصر العولمة المعلومات** (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 2002).

وبضرورة احترامه. وهو أحد الأعمدة التي يقوم عليها النظام الدولي، كما يعدّ من دعائم القانون الدولي التقليدي.[1] وبدءاً من حرب الخليج وفي ظل غياب القطب الثاني بدأت تظهر مرحلة تفرد فيها القطب الواحد بقيادة العالم وأعلن قيام النظام العالمي الجديد.

أ ــ تضاؤل سلطة الدولة بسبب التقدم التكنولوجي

وفي ظل هذا الجوّ بدأت الدولة تفقد بالتدريج القدرة على التصرف في إقليمها أمام التقدم العلمي الهائل، خاصة أمام استخدام الفضاء الخارجي في الاتصالات وعبر الأقمار الصناعية التي شاع استخدامها في نقل المكالمات التلفونية والبث التلفزيوني والفاكس. وقد دفع هذا الفتح الجديد صناعة الهواتف وأجهزة التلفزيون إلى التحديث بقصد الارتباط بوسائل الاتصال الفضائية. وبهذه الثورة في وسائل الاتصال الكوكبية انهارت سلطة الدولة في الرقابة على ما يتلقاه أفراد شعبها من رسائل إعلامية أو معلوماتية أو ثقافية. قال مدير شركة الكمبيوتر مايكرو سيستمز Micro systems "يمكن لكل فرد أن يعمل لدينا المدة التي تناسبه، إننا لا نحتاج إلى الحصول على تأشيرات السفر للعاملين لدينا من الأجانب. فالحكومات ولوائحها لم تعد لها أهمية في عالم العمل إنه يشغل من هو بحاجة إليه والمفضل عنده في الوقت الراهن هم "عقول الهند الجديدة" التي تعمل دون كلل أو ملل فالشركة تتسلم بواسطة الكمبيوتر طلبات العمل الجديدة من كل أنحاء المعمورة، إننا نتعاقد مع العاملين لدينا بواسطة الكمبيوتر أيضاً[2] وهكذا فإن الدولة لم تعد قادرة على حماية داخلها إعلامياً أو اقتصادياً لأن الأخبار تنتقل بسرعة مما يدل على صعوبة الفصل بين المحلي والعالمي.

---

1 نافعة، حسن، **الأمم المتحدة في ظل التحولات الراهنة في النظام الدولي** (جامعة القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، 1994) ص34.

2 هانس بيتر مارتين وهارولد شومان، **فخ العولمة**، ص24.

ب ــ تضاؤل سلطة الدولة بسبب نفوذ الشركات متعددة الجنسيات

وفضلاً عن ذلك، لم تعد حدود الدولة القومية هي حدود السوق الجديدة، بل أصبح العالم كله سوقاً واحدة للخدمات والسلع وتسويق المعلومات والأفكار، فاخترقت الشركات متعددة الجنسيات حدود الدولة، وأخذت هذه الأسوار تفقد قيمتها الفعلية بل أصبحت أكثر الأسواق شكلية سواء، تمثل ذلك في حواجز جمركية أو ممارسات لسياسات نقدية أو حدود لسلطات سياسية متمثلة في الولاء والخضوع لهذه الشركات الكبرى نظراً لاستثماراتها المباشرة داخل البلاد ولما تبعثه من حركة اقتصادية ذات بال، وقد تعمد هذه الشركات العالمية إلى تطويع قوانين الدولة لفائدتها بمختلف السبل كالتهرب من الخضوع إلى القوانين المالية. وقد تفرض إصلاحاً نقدياً، وقد تتدخل في المسائل الاجتماعية كمسألة تحرير المرأة. وقد تقبل الدول الضعيفة بهذه الشروط المجحفة والتدخلات السافرة نظراً للظروف الاجتماعية والاقتصادية القاسية التي تمرّ بها هذه الدول.

وقد تعمد هذه الشركات متعددة الجنسيات إلى التغيير السياسي عن طريق الفعاليات السياسية المعارضة بتمويلها والإيحاء لها بلون المنهج السياسي المراد تطبيقه من قبل أرباب العولمة.

كما اجتاحت العالم تكتلات اقتصادية عملاقة تجاوزت حدود الدولة القومية إلى الاقتصاد العالمي وقد ساعد على ذلك الثورة التكنولوجية، هادفة من وراء ذلك إلى تنمية الإنتاج بواسطة التكامل والتعاون وقد أدى ذلك إلى تخلّي الدولة عن بعض اختصاصاتها.

ج ــ خصخصة المؤسسات وأثرها في سيادة الدولة

وقد أتى حين من الدهر على الدولة تمكنت فيه من ملكية مؤسسات عامة كالنقل والمؤسسات الصحية والتعليمية وشبكة الهواتف والحدائق العامة والأمن ...

ولكن اتجاه العولمة يميل إلى تخصيص هذه القطاعات. ولذلك إيجابيات وسلبيات معروفة، غير أن هذا بما فيه من إيجابيات وسلبيات سوف يضعف من سيادة الدولة. وقد أدى ذلك إلى غياب دولة الرفاه التي صرفت نظرها عن الجانب الاجتماعي وأوكلته إلى أرباب المؤسسات والشركات الخاصة، وهؤلاء همهم الأوحد في الغالب ضمان الربح قبل أي هدف اجتماعي آخر.

د ــ المنظمات الأهلية وأثرها على سيادة الدولة

إن المنظمات الأهلية، وخاصة منظمات حقوق الإنسان، برزت بصفة فاعلة وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالمنظمات العالمية فازدادت قوة إزاء تجاوزات الدولة القانونية فتشهّر هذه المنظمات بسلوكيات الحكومة عندما يلزم التشهير بالسلوك غير القانوني وتندّد بالتجاوزات التي تتعلق بحقوق الإنسان كالتعذيب والتوقيف التحفظي غير المنضبط وما إلى ذلك من الصور المريعة التي تمارسها السلطة المستبدة. هذه الظاهرة التي تمت في العقدين الأخيرين في بلدان العالم الثالث قد حدّت من السيادة التقليدية للدولة.

وإذا برزت قضايا حقوق الإنسان وحدّت من سيادة الدولة فحقوق الأقليات المهددة بالتصفية والإبادة أبرز مثال يوضح هذا الأمر لذلك شرع مبدأ "التدخل الإنساني" الذي نادت به فعاليات واسعة من القوى الدولية مثل الأمين العام للأمم المتحدة الذي قال في 20 سبتمبر 1999 أمام الجمعية العامة: "إن سيادة الدولة من حيث معناها الجوهري يعاد تعريفها بواسطة قوى العولمة والتعاون الدولي" ذلك "أن الدولة أصبحت مفهومة الآن على نطاق واسع بمثابة خادمة لشعبها، وليس العكس، وفي الوقت نفسه فإن السيادة الفردية وأعني بذلك الحقوق الإنسانية والحريات الأساسية لكل الأفراد كما حدّدها ميثاقها، اكتسبت مكانة أهم بفضل الوعي المتجدد بحق كل فرد أن يسيطر على مصيره الشخصي."[1]

---

[1] **جريدة الخليج** (يومية)، "عالم جديد"، الجمعة، شعبان 1420 هـ 19 نوفمبر 1999، العدد 7488، ص10.

هكذا بدأ الصراع بين أنصار سيادة الدولة الوطنية من جهة وأنصار حقوق الإنسان كفرد أو بوصفه جزءاً من الشعب من جهة أخرى، ويزيد من صعوبة تحكم الدول في هذه المنظمات الأهلية التطور الهائل في وسائل الاتصال فعبر "الإنترنت" مثلاً تطالع مختلف أخبار الدول وما تفعله بالداخل من استبداد وتجاوز وإزاء هذه الحالات بدأت تظهر تدريجياً فكرة إنشاء نظام قانوني دولي يتناسب وواقع العولمة الذي يقتضي موضوعياً تجاوز سيادة الدول والأخذ بعين الاعتبار لمبدأ سيادة الجنس البشري وأولوية القيم الإنسانية الشاملة على المعطيات السياسية الوطنية أوالخاصة. وقد تم إنشاء محكمة جنايات دولية* هدفها التدخل لحماية حقوق الإنسان وتركيز القيم الإنسانية العليا على حد تعبير أحدهم.

هـ – مشكلات عالمية جديدة أدّت إلى تضاؤل سيادة الدولة

ومما أسهم في تضاؤل سيادة الدولة بروز مشكلات عالمية جديدة من أبرزها: القضايا التي تتصل بالبيئة والتلوث، وتوطين النفايات، وقضايا التصحر والاحتباس الحراري والانفجار السكاني وقضايا التطرف والإرهاب وغيرها من القضايا التي تتطلب حلولاً ومعالجات مجرد جهود فردية. وهل هناك دولة ترفض التعاون في قضايا الإرهاب؟ أو تتردد في تسليم المتهمين في هذه القضايا؟ يقول بنجامين بربر: "إنه لم يعد بوسع أكثر الدول تقدماً الإدعاء بأن لها سيادة تامة لأنه عندما يصل الأمر إلى الأمطار الحمضية أو بقع الزيت أو المياه الجوفية أو ملوثات الفلوروكربون، أو التسرب الإشعاعي، أو النفايات السامة أو الأمراض التي تنتقل عن طريق الاتصال الجنسي فإن الحدود الوطنية تصبح بكل بساطة لا قيمة لها، فالسموم لا تتوقف في نقاط الجمارك للتفتيش، والميكروبات لا تحمل جوازات سفر."[1]

---

* أنشئت المحكمة الجنائية الدولية في 17 تموز (يوليو) 1998 بعد أن قامت 139 دولة بالتوقيع على نظامها الأساسي حتى نهاية العام 2000 والتي سيتم الإعلان عنها رسمياً بعد أن تصادق 60 دولة على نظامها الأساسي (انظر **مجلة المستقبل العربي**، تقريرًا عن ندوة "المحكمة الجنائية: تحدّي الحصانة" دمشق 3-4 نوفمبر 2001، ص146.

1 باربر، بنجامين، **عالم ملك: المواجهة بين التأقلم والعولمة**، ترجمة أحمد محمود (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1998) ص15.

إن فكرة تلاشي الدولة أو الانتقاص من سيادتها بسبب عوامل داخلية وخارجية ظلت ترافق المسيرة التاريخية وظلت شائعة في التاريخ السياسي. وقد قال بها الكثير من المفكرين ككارل ماركس، ونادى بها البعض الآخر كالفوضويين وغيرهم. وما يجري الآن من تحولات في مفهوم سيادة الدولة ومداها يكاد يكون تصديقًا أو تحقيقًا لما نادى به أولئك المفكرون.

ولكن الذين تمسكوا بها وأثبتوا خلودها هم الأكثر عدداً والأقوى حجة والأفضل قولاً وقبولاً.

مرتكزات الانفتاح الحضاري في الإسلام

يستمد الانفتاح الحضاري في الإسلام مرتكزاته ومقوماته من أصول العقيدة ومن المبادىء الكلية والقيم الأساسية التي جاء بها القرآن الكريم وبلغها الرسول عليه الصلاة والصلام لتقوم بها الحياة الإنسانية ويتأسس عليها الاجتماع البشري وفق منهج متكامل الأبعاد ومترابط المكونات. وينبثق ذلك كله من عقيدة التوحيد التي تربط الناس جميعاً بالله تعالى الإله الواحد الخالق والرب الكريم الرازق. ونذكر باختصار بعض تلك المرتكزات التي تمثل في الوقت نفسه الإطار الذي يضفي على الانفتاح الحضاري صبغته الروحية ويعطيه وجهته الخلقية.

1- وحدة الخلق ووحدة النفس الإنسانية: من الحقائق الكبرى التي يثيرها الخطاب القرآني ويؤكدها في الوعي الإنساني حقيقة كون البشر جميعاً قد انبثوا من أصل واحد، مهما كان من اختلاف أجناسهم وتعدد ألسنتهم وتباين ثقافاتهم. فهم بذلك متحدون في المنشأ ومتساوون في الحقيقة الإنسانية، إذ أن خالقهم هو الله الواحد الذي أسبغ عليهم تكريمه عندما قضت مشيئته باستخلافهم في الأرض. وفي ذلك نقرأ قول الله تعالى خطاباً للناس أجمعين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء: 1). فهذه الآية الكريمة "ترد الناس إلى رب واحد، وخالق واحد؛ كما تردهم إلى أصل واحد، وأسرة واحدة؛ وتجعل وحدة الإنسانية هي "النفس" ووحدة المجتمع هي الأسرة، وتستجيش في النفس تقوى الرب ورعاية الرحم.. لتقيم على هذا الأصل الكبير كل تكاليف التكافل والتراحم في الأسرة الواحدة، ثم في الإنسانية الواحدة."[1] فدعوة القرآن الناس إلى التقوى جاءت مقرونة بتذكيرهم بأصلهم الواحد مما أظهر "المناسبة بين وحدة النوع ووحدة الاعتقاد."[2] وهذا يعني أن الإسلام في تعامله مع الإنسان يتجاوز كل الحواجز العنصرية واللغوية والثقافية والمادية لينفذ إلى الجوهر الحقيقي الذي يشترك فيه كل البشر وبه يتساوون.

2- ملاءمة تعاليم الإسلام للطبيعة الإنسانية: إن من أهم الحقائق التي يؤكدها القرآن الكريم كون تعاليمه موافقة لطبيعة الإنسان ومنسجمة مع تكوينه، ولذلك جاء وصف الإسلام بأنه دين الفطرة التي خلق الله عليها البشر، حيث نقرأ قواه تعالى خطاباً إلى الرسول عليه السلام وعَبْرَه إلى الناس كافة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ (الروم: 30). وفي هذا الصدد يقول العلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ما يأتي: "فوصف الإسلام بأنه دين الفطرة معناه أن أصل الاعتقاد فيه جار على مقتضى الفطرة العقلية، وأما تشريعاته وتفاريعه فهي إما فطرية أيضاً، أي جارية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به، وإما أن تكون لصلاحه (أي صلاح الإنسان) مما لا ينافي فطرته."[3] ويزيد هذا المعنى توضيحاً وتفصيلاً فيقول: "ومعنى

---

[1] قطب، سيد، **في ظلال القرآن** (القاهرة/بيروت: دار الشروق، 2004/1425)، ج 1، ص573.

[2] ابن عاشور، محمد الطاهر، **تفسير التحرير والتنوير** (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، 1997)، مج3، ج4، ص214.

[3] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، مج 10، ج21، ص91.

وصف الإسلام بأنه "فطرة الله"، أن الأصول التي جاء بها الإسلام هي من الفطرة. ثم تتبعها أصول وفروع هي من الفضائل الذائعة المقبولة، فجاء بها الإسلام وحرض عليها، غذ هي من العادات الصالحة المتأصِّلة في البشر، والناشئة عن مقاصد من الخير سالمة من الضرر، فهي راجعة إلى أصول الفطرة."[1]

فخطاب الإسلام إلى الناس وانفتاح رسالته عليهم وتوجه دعوته إليهم إنما تتخذ مسالكها إلى نفوسهم من توافق أصوله وانسجام تعاليمه وأحكامه مع تكوينهم الفطري وطبيعتهم التي خلقهم الله تعالى عليها، فلا تنافر إذن بين فطرتهم وما يدعوهم إليه من تعاليم وقيم لا يراد منها إلا خيرهم وصلاحهم أفراداً وجماعات وشعوباً وأمما. وذلك مناط عالمية الإسلام منذ سطع نوره وبزغ فجره، وهي عالمية قائمة على السماحة والتيسير ومراعاة أحوال البشر. وإذا كان الإنسان هو الإنسان في كل زمان وفي كل مكان بنوازعه ورغباته وتطلعاته، فإن تعاليم الإسلام لم تأت لتجتث تلك النوازع أو تقهر تلك الرغبات أو تكبت تلك التطلعات، وإنما جاءت تسلك في مراعاتها وتحقيقها منهجاً واقعياً متوازناً غايته الحفاظ على الفطرة الأصيلة للإنسان بعيداً عن تطرف الدعوات الروحية المهومة وجحود الفلسفات المادية المسرفة. وبذلك يكون الانفتاح الحضاري في الإسلام مؤسساً على ما يمكن عده رؤية واقعية روحية أخلاقية للإنسان.[2]

3- التعارف: إن التعارف أصل مكين من أصول التواصل بين البشر التي يقوم عليها الانفتاح الحضاري في الإسلام. فالقرآن الكريم يخاطب الناس مذكراً إياهم بأصلهم الواحد الحاكم فوق تشعبهم إلى شعوب وقبائل ومبيناً لهم الحكمة البالغة من وراء ذلك فقيول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ

---

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تحقيق ودراسة محمد الطاهر الميساوي (عَمَّان: دار النفائس، 2001/1421)، ص264.

[2] راجع لمزيد من التفصل المرجع السابق، ص268-277 و 317-328.

شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: 30). فهذا النداء من خالقهم الواحد يطلع الناس "على الغاية من جعلهم شعوباً وقبائل. إنها ليست التناحر والخصام. إنما هي التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات. وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله."[1] ذلك أن مصائر البشر ومصالحهم في هذه الأرض التي استخلفهم الله عليها مترابطة، ولا يفي أحد — فرداً كان أو قبيلة أو شعباً أو أمة — بكل احتياجاته في الحياة بمفرده دون تواصل وتعاون مع الآخرين. وإنما يمكن ذلك فقط إذا انضمت جهوده إلى جهودهم وتكاملت مواهبه وطاقاته مع مواهبهم وطاقاتهم. وذلك هو مقتضى التعارف الذي جعله القرآن الكريم مناط الحكمة في كون البشر مختلفين ومتنوعين، وبذلك يقوم الاجتماع البشري وتنمو الحضارة الإنسانية.

فهذا التعارف الذي نيطت الحكمة في جعل الناس شعوباً وقبائل جاء مصدَّراً بتذكير المخاطبين بصدورهم من ذكر وأنثى كناية عن مساواتهم في أصل النوع الإنساني، كما جاء مذيَّلاً بتوجيههم إلى اكتساب الفضائل الروحية والخلقية الحقة التي بها وحدها يكون التفاضل بين البشر، فجاء هذا النداء الإلهي في الآية بذلك مُدمِجاً "واجب بث التعارف والتواصل بين القبائل والأمم" والشعوب، ورادًّا الناس إلى الفطرة التي فطرهم الله عليها، بعد أن حرفوها وزاغوا عنها فقلبوا الوضع بأن جعلوا اختلاف الشعوب والقبائل سبب تناكر وتطاحن وعدوان.[2]

---

1 قطب، **في ظلال القرآن**، ج6، ص3348.

2 ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، مج 12، ج26، ص260-261.

وبهذه الأسس الكبرى التي يرسيها الإسلام للانفتاح الحضاري بين الشعوب والأمم والتي يحتاج تفصيل القول فيها إلى مجال أوسع مما يسمح به المقام هنا، فإنه يضع الإطار اللازم والمناسب لعلاقات تفاهم واحترام وتعاون بين البشر على اختلاف ثقافاتهم وحضاراتهم ونظم حياتهم، للعمل من أجل منافعهم ومصالحهم المشتركة حيثما كانوا على ظهر هذه الأرض التي اختصرت المسافات بين أجزائها زماناً ومكاناً حتى أصبحت كما لو أنها قرية كبيرة واحدة. وإن الإطار الذي يضعه الإسلام للانفتاح الحضاري بين البشر يقتضي تنادياً صادقاً بين الفرقاء المختلفين للسعي الجاد لمقاومة كل النزعات العنصرية والمواقف الاستعلائية والقوى الاستغلالية الهيمنية والتيارات المادية الجارفة التي ما فتئت تزج بالإنسانية في مزالق الهلاك المادي والروحي. ولذلك يقدم الإسلام للبشر نظاماً تشريعياً يتحقق فيه الشمول لكل مناحي الحياة ويقوم على العدل والاعتدال والرحمة والتسامح ومراعاة الحقوق والواجبات، وتصان فيه المحارم ويأمن فيه الناس على عقائدهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم وأهليهم. كما يقدم لهم نظاماً خُلُقيًا يحفظ للإنسان إنسانيته بما يرفعه إليه من مثل عليا وقيم سامية عمادها الاحترام والتعاون والنجدة والتواد والترحم. وتظلل ذلك كلّه عقيدة التوحيد الصافية التي تجمع البشر حول رب واحد وتخلصهم من الشرك بجميع أصنافه وتحررهم من العبودية والذلة لغير خالقهم.

خاتمة

وإن مرتكزات الانفتاح الحضاري في الإسلام التي أوردنا بعضها لتجد المجال أمامها منفتحاً والسبيل ممهداً بفضل الثورة الهائلة التي حصلت في وسائل الاتصال ووسائط التواصل بين البشر، بما في ذلك الفضائيات، والحاسب الآلي والشبكة العنكبوتية الدولية (الإنترنيت)، إلخ. فبفضل هذه الثورة تقلصت المسافات وسقطت الحدود والحواجز بين البلدان وانفتحت الأبواب والمسالك بصورة غير مسبوقة في

تاريخ الإنسانية لحركة البشر والأفكار والأشياء، الصالح منها وغير الصالح والنافع منها والضار، ولم يعد هناك مجال لشخص أو شعب أو بلد أن يعيش في عزلة عن التفاعلات الكبرى والتحولات العميقة التي تحصل في العالم، ومهما حاول ذلك فلن يكون له من مآل سوى التهميش من الحياة أو التحطم تحت وطأة تياراتها المتدافعة وأمواجها العاتية. وليس أمام المسلمين من خيار إلا أن يخوضوا غمار هذا العالم الجديد بروح إيجابية وعزيمة قوية وعقلية مبدعة تسندهم عقيدتهم التوحيدية القويمة وتحدوهم رسالتهم الإسلامية المكينة لكي ينقذوا أنفسهم والإنسانية جمعاء، فإنما أرسل الله تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام وأنزل عليه القرآن و هداية للبشر كافة ورحمة للعالمين: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الفرقان:1)، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرا﴾ (الأنبياء: 107)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعا﴾ (الأعراف:158)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ:28).